أُغنيةُ السُّونُو البيضاءُ

(تخطيط تلفزيوني)

حسب الشيخ جعفر

(في الحديقة الخريفية.. الممتدة بين الطريقين الجانبيين المتفرّعين من الشارع.. الثانيةَ عشرةَ من اللّيل.. على المصطبة، تحت الأشجار المصفرّة، يتكئ الشاعر نائماً في معطفه الخفيف.. يبدو كالثمل أو كالمريض.. تمرُّ الراقصة العائدة من المسرح، في معطف سابغٍ طويل كالعباءة، ذاهبةً إلى بيتها القريب.. تمرُّ بالمصطبة وتتجاوزها.. غير انّها تقف مترددّةً.. تعود وقد رقّ قلبها رحمةً بالغريب النائم..)

الراقصة: **(تضع يدها على كتفه هازّةً إيّاه برفق)**
قمْ إلى البيتِ يا صاحبي فالسماء
متلبّدةٌ، مُنذره
وقد انتصفَ الليلُ، وانفضَّ عنكَ الصِحاب!
الرياحُ تكوّمُ فوق السَحابِ السَحاب
والحديقةُ موحشةٌ، مقفره!

الشاعرُ: **(لم يزل كالنائم)**
بل أُريدُ المزيد
هات قنينةً ثانيه..

الراقصة: **(هازةً إيّاه، مبتسمةً بلطف)**
تلك أمنيةٌ فانيه!
لم يعُدْ في المطاعمِ من أحدٍ!
أُطفِئتْ وتفرّقَ في الطُرقِ الساهرون!
(متاملةً وجهه الوديع)
أنت تحت الشجر الذاوي المعرّى
قم إلى البيتِ ودعْ عنكَ التراخي
واطّرحْ للرِّيح عن معطفِكَ (الصيفي) أوراقَ الشجر
سيهُزُّ الأسقفَ الرعدُ وينصبُّ المطر!

الشاعر: **(يقف مترنّحاً قليلاً، آخذاً بيدها)**
كنتُ في مطعمٍ ما.. وكانت هنا
عُصبةٌ من صبايا المقاهي وفرسانِهنَّ الصغار
واتفقنا على موعدٍ أو لقاء..

الراقصة: **(ساحبةً يدَها برفق من يده.. باسمةً)**
ذهبوا، بالطبع، وقد ينسوا
من أن تتحركَ أو تخطو!
فاحثثْ قدميكَ إلى المترو
ودع الدكّاتِ الليليه
للحُرّاسِ الليليين!

الشاعر: **(وقد ذهبَ النومُ بتعبهِ وسُكرهِ.. متفرّساً في وجهها، ماخوذاً بجمالها الرائع الغريب!).**
ولم التعجُّلُ؟ لن يطولَ بنا المكوث!
وكأنّني في ظلِّ أروقةِ الكنائسِ.. أو هناك
من قبلِ قَرنٍ بين أسيجةِ القصور
بعد انفضاضِ الرقصِ من حفلٍ أعود!
وكأنّني في ظلِّ موسيقى ابتهالٍ أو روايه!
بل إنّنا، من قبلُ، في الحفلِ التقينا..

الراقصة: **(كالضاحكة)**
لم أكنْ يا صاح في المطعمِ أو في أيِّ مقهى!
لم يعُدْ يُجدي الوقوف
تحت أضواءِ الخريفِ الشاحبه!
أوغل اللّيلُ.. وإني ذاهبه..

الشاعر: أنا لم أكن أعني التقاءَكِ ها هنا

في المطعم (الفضيِّ).. أو مقهى (البتولا)
إني التقيتُكِ قبلَ قرنٍ أو يزيد
وقد ارتمتْ بالوردِ بينَ يديكِ أفئدةٌ، وطال
تصفيقُهمْ في المسرحِ الأَلِقِ البهيج!

الراقصة: (مرحةٌ خاليةَ البال)
أنا بالفعلِ من المسرحِ تَوّاً آتيه
ولقد صفّقتِ الأيدي، وأوفوا بالزهور
إنّما من قبلِ ساعة
قبلَ أن تلتفَّ أعطافي بهذا المعطفِ الضافي
الطويل!
(تتلمّس معطفها الفضفاض غيرَ متعمِّدة)

الشاعر: (يمسك بيدها دون أن يدري.. تتركها له لحظةً في يده.. وتسحبها برفق ضاحكة العينين)
فلماذا، إذن تتنفّسُ في وجهكِ الأزمنه
ألشذى الليليَّ القديم؟
وتطوّفُ من حولكِ الأخيله
وتُحيطُ بوجهكِ هذي الظلال؟

الراقصة: (ناظرةً إلى ساعتها)
بل تلك أحواضُ الزُّهور تفوحُ عن قربٍ وتُهدي
أنفاسَها الليليةَ النّعسى إليك..
ولعلَّها الخمرُ (المعابِثةُ اللعوب)
تُضفي عليَّ رؤىً وبَهرجةً لديك!

الشاعر: (خائفاً من أن تتركه)
ها هنا يحلو إلى مثلِكِ في الظلِّ الجلوس
حيث يطفو الورقُ العاري، وتغفو في الوكور
ملءَ عينيها الطيورُ المتعَبه!

الراقصة: الرقصُ أجهدَ من قوَاي.. وتلك نافذتي تلوح!
فإذا انتويتَ غداً إلى (الحفلِ) المجيء
ستلُمُّ ملءَ يديكَ عنّي ما تشاءُ من الرؤى
في المسرحِ الأَلِقِ البهيج!
ولديَّ تذكرةٌ.. فَخُذْها
(تُخرج بطاقةً من حقيبتها وتقدِّمها له)
كنتُ احتفظتُ بها لأختي.. إنّما..
أنا جدُّ منهكةٍ وقد طال الوقوف
فَإلى اللِّقاء غداً.. هناك..

(في المطعم.. آخرَ السهرة.. لم يزل الشاعر جالساً إلى مائدته.. لا احدَ آخر سواه في المطعم غير الراقصة في هيئةِ النادلة.. تخرج حاملةً عدداً هائلاً من الأطباق الخالية يعلو بعضها بعضاً.. وتعود فارغة اليدين.. تأخذ برفعِ الشراشف المستعملة عن الموائد وتضعها جانباً.. الأضواء الحمراء آخذة بالخفوت..)

الشاعر: (بعد تحديقة طويلة بوجهها)
ما كنتُ أعلمُ أنّني سأراكِ يوماً ها هنا
وقد اعتزلت المسرحَ الألِقَ البهيج
يتودّدُ الثملون والحمقى إليك
أو يَنفحونكِ درْهماً يتفضّلون به عليك!

الراقصة: (غيرَ ملتفتة إليه، منشغلة بعملها)
أنا مسرحيِ الليليُّ مائدةٌ تحِفُّ بها الصحون
ويُضاحكُ القدحُ الزبون!
فلِمَ البقاءُ محملقاً بي (ها هنا)
مادمتَ تأنَفُ أن ترى
بيضَ القلانسِ والطهاةَ يُخلِّلون ويعجِنون؟

الشاعر: في أيّ ثوبٍ أنتِ مثلُكِ في غلائلك الخِفاف
أو دونَهنَّ، تُضيء زُرقَتها البحيرةُ أو تَغيم
عندَ اخضرارِ الحقلِ أو في الغابِ نائمةً كطفله
تصحو على كَتِفيكِ تائهةً كأجنحةِ الفَراش
أقمارُ ثلجٍ أو تطوف
خُضرُ الغمائم والطيوف!

الراقصة: (مقتربةً منه، باسمةً بسمةَ إجهادٍ وتعب)
أنا أخشى أن أتجمَّدَ برداً أو خوفاً
في الغابةِ والبِرَك المتجلِّدةِ الزَلِقه!
ولماذا النزهةُ في الأجَماتِ الثلجيه؟
الليلةَ يحتفلُ الطباخون
بتقاعُدِ طباخٍ أدرد
تتقايضُ بينَ يديه الشمبانيا
وستمنحُكَ القِدْرُ الذهبيةُ ألواناً
لا تمنحُها إلاّ أربابَ المهنةِ والعُشَراء!

الشاعر: ما أنا بالضيفِ أو بالضَيْفَنِ الطاوي الأكول!
أنا لي بعدَ محطاتٍ ثلاث
غرفةٌ.. فلنمضِ (بالحفلِ) إليها!

الراقصة: بل بين أحزمةِ المَقانِقِ والخُضَرْ
في المطبخِ الليليّ يأتلقُ السرور!
سترنُّ ملءَ يديكَ أغطيةُ القدور
وتُراقصُ الجُرَذَ الهِرَرْ!

الشاعر: إنّني لم اتعلّمْ بعدُ موسيقى الملاعق
واكتناهَ الطبقِ الفوّارِ تحت الأبخره!
انا لا اعبأُ بالرغوةِ غضبى مُمطره!
إنّما اقعدَني عندكِ تَطوافي الطويل
وانتظاري لكِ أعواماً بأبوابِ المسارح
وعلى الدكّةِ تحت الشجر الذاوي المعرّى
والتقاءِ الضوءِ والظلِّ بأركانِ المعابد!

الراقصة: انا يا صاحبي لا أزورُ الهياكلَ إلاّ لِماماً
اتفحّصُ فيها الرسوم!
وأرودُ المسارحَ ممتنّةً
ما استطعت الحصولَ على تذكره
إنّما المعذره..
إنّني لم أعُدْ اتذكّرُ اني التقيتُكَ تحت اصفرارِ الشجر
او بأحراشٍ ضاحيةٍ تتقاطعُ فيها السِّكك!
فإذا شئتَ.. فالآخرون
حول أطباقِهم في حبور!
توّجوا بالكُرُنْبِ الأكابرَ منهمْ.. وأمّا انا
فسأُطفئُ ضوءَ الجُدَى المُوهَنا
وأُعِدُّ الفَطور!

(في الطائرة.. في المقصورة العليا من الطائرة المنطلقة.. يجلس الشاعر منفرداً.. لا احد غيره هناك.. تدخل الراقصة في هياة المضيفة دافعةً عربتَها الصغيرةَ المحمّلةَ بالمشروبات وغيرها..)

الشاعر: **(يُفاجَا بها.. ويهتف بعد تحديق)**
ها نحن ثانيةً معاً
وبلا اصفرارِ خريفِ أيكٍ أو ظلال
بعدَ انتظارٍ طَال أعواماً طِوال
بعد الترقُّبِ والتعقُّبِ والضَياع!

الراقصة: انا قد جئتُكَ في أولِ فُرصه
فأنا لم أتأخّرْ عنكَ إلاّ لحظةً أو لحظتين
فتفضّلْ!

الشاعر: أوَ لم تعودي تذكرين؟
فقد التقيتُكِ مرّةً أخرى هناك
في المطعمِ الخالي تنوءُ يداكِ بالعبءِ الركين!

الراقصة: **(متاملةً وجهَه كمن يحاول ان يتذكّر)**
إنني التقيكم هنا
ليلةً أو نهار
وتُفرّقكُمْ في الجهاتِ شؤونُكم الساخنه
فلعلّكَ ابصرتَني مرّةً في المطار
اترشّفُ قوتيَ الداكنه
قبل ان أتسلّق سُلّمَ طائرتي من جديد..
أيُّ شيءٍ تريد؟
كلُّ شيءٍ لديَّ! الكولونيا.. السجائرُ والخمرُ
من أيِّ حاضرةٍ أو مَدار!

الشاعر: **(اخذاً قنينةَ خمر، دافعاً ثمنها)**
لا احدَ الآن هنا سواي!
أم إنّني المسافرُ الوحيد؟
أين هم الآخرون؟

الراقصة: إنّهم تحتُ في سُكْرِهِمْ عائمون!
دونما رادعٍ أو رشاد!
أفْزَعُوا النِّصفَ من عُدّتي
ومطالبُهم في ازدياد!

الشاعر: أوَ ترغبين معي بكأس؟
ما من هواتفَ أو شواغلَ ها هنا!
مذ جئتُ لم يشأِ الصعودَ إلى هنا أحدٌ سواي!

الراقصة: **(جادةً، صريحةَ الوجه)**
لا وقتَ تحت جَناح طائرةٍ تطير!
فإذا أرَدتَ فبعدَ غَدْ
في أيِّ مقهىً ترتئيه
وسأترُكُ التلفونَ عندكَ.. أيُّ شيء؟
عطرٌ.. كولونيا.. أم تُبوغ؟

(في الزوبعة الثلجية.. اولَ اللّيل.. المخزن بواجهته المضاءة على رصيف الساحة عند انطلاق الشارع المترامي بعيداً.. الثلوجُ المنهمرة المتسارعة تغمرُ الارض والاشجار المتلويةَ المتتابعةَ على امتداد الرّصيف.. تخرج الراقصة من المخزن، في معطف فروٍ طويل وبقبّعةِ فرو، حاملةً بيدها حقيبةً من حقائب التسوّق يبدو منها بارزاً بعضُ المشتريات.. يتبعها الشاعر، وقد ظهر فجاةً في معطفه وبقبّعته.. تتّخذ الثلوجُ المنهمرةُ، بين حين وآخرَ، لها لوناً اصفر او اخضر.. لونَ اللّقاءِ الاوّلِ وتجدُّدَهُ في ذهنِ الشاعر..)

الشاعر: لحظةً يا.. آنسه!

(تتوقّف الراقصة متفرّسة في وجهه)

ما اسمُ هذا الشارعِ الخالي الطويل؟

الراقصة: كوخُ صيادِ الثعالب!

الشاعر: ربما التقتْ هنا الغابةُ يوماً

وارتمى الأُفقُ بمرعىً وحقول!

الراقصة: **(محاولة إخفاءَ ابتسامةٍ عريضه)**

ربما.. فهو دربٌ قديم!

الشاعر: ولعلَّ الشجر

كان جزءاً من الغابةِ المتشابكةِ الوارفه

تتخفّى بهِ الدببه

وتُخَبّأُ فيه الفِخاخ!

الراقصة: **(وقد اخذا يخطوان قليلاً أو يلوذان بالأشجار اتقاءَ الرياح العاصفة..)**

لم يزلْ بعضُ تلك الفِخاخ

كامناً في الخفايا هنا.. أو هناك

تتعثّرُ فيه الأوانسُ والسيّدات

دونما رأفةٍ أو فَكاك!

الشاعر: **(ممازحاً)**

ما أنا بالصائدِ البارعِ في الأدغالِ أو في الطُرُقات!

وعلى أيّة حال

أنا لم أحملْ إلى الشارعِ طُعْماً أو حبال!

الراقصة: غيرَ أنّكَ تعرفُ في أيِّ وقتٍ تصيد

خاتِلاً باتجاهِ الطريدةِ متّئدَ الخطو..

مندفعاً فَجأةً لا تَحيد

في الْتِطَامِ الزوابعِ بالثلجِ.. أو نائماً

في مهبِّ من الريحِ والورقِ اليابسِ

علَّ عابرةً تترفّقُ بالشاعرِ الناعسِ!

الشاعر: كنتُ يومئذٍ ثملاً متعَباً..

الراقصة: **(ناظرةً إلى ساعتها)**

إنّما الساعةُ تجري.. وأنا الغو وألغو!

ينبغي أن أصلَ البيتَ قبيلَ الثامنه

قبلَ أن يبدأَ برنامجُ «رقصٌ وجليد»

فأرى الخُطوةَ منّي تتثنى وتميد

وأنا في مقعدي الدافئ كسلى آمنه!

الشاعر: ولِمَ الرحيل؟

وعلى الرّصيفِ الزَّلِقِ تحت الزوبعه

يتراقصُ الشجرُ المعربدُ أو يميل

بكؤوسِهِ الملأى فيُسكِرُنا معه؟

الراقصة: **(ممازحة ايضاً)**

فابقَ ما شئتَ هنا تحت الغصون

واسألِ الرّيحَ فقد تُنبيكَ عمّا اخضرَّ

قبلَ الأرضِ من كَرْمٍ وصار

بين أيدي الرِّيحِ انخاباً تُدار

فعسى تسكَرُ كالرِّيحِ بلا خمرٍ وأمرٍ.. أو ديون!

الشاعر: بل ندورُ وننفُضُ عنّا الثلوج

ونضوّئُ في الركنِ من مطعمٍ شمعتين

نتقاسمُ بينهَما رشفتين!

الراقصة: **(مازحة، ناظرةً إلى ساعتها)**

في وقتٍ آخرَ تحملُنا

رنّات جَلاجلَ فضيّه

ولهاثُ خيول!

الشاعر: هي ذي العرباتُ الثلجيه

تعدو وتجول..

الراقصة: أنا مُثقَلةٌ بالحوائج يا صاحبي

والحقائبُ في شُقّتي بانتظار!

ينبغي أن أُلملمَ أرديتي المهمله

وأغادرَ مُهْرَعةً مُعْجَله

قبل أن يتحرّكَ بالراقصينَ القِطار!

(تتخذ الثلوجُ المتسارعةُ الواناً متعدّدةً.. تبتعد الراقصة بخطواتها الخفيفة المتناغمة، وتنفتل مع الموسيقى الصادحة متحوّلة إلى عمود من الثلوج المتراقصة..)

ملاحظة: من الممكن ان تظهر الراقصة بالمظهر التالي: في المنظر الأول في معطف اسود وبمنديل عنق ابيض.. في المنظرين الثاني والثالث في ثوب اسود وحزام ابيض.. في المنظر الاخير في معطف اسود وقبعة بيضاء.

بغداد